تغيرات البول في امراض البلدان الحارة

عنوان كتاب جديد باللغة الفرنسوية للدكتور يوسف خوري الكيماوي المعروف بالاسكندرية فاحببت ان اوافي قراء المقتطف بكلمة عنهُ على قدر ما يسمح مجال المجلة وتعدد مباحثها

ان للبول البشري تاريخاً لو اردت ان آتي عليهِ لطال بي الشرح وجاوزت الغاية من هذه السطور على ما هناك من اشياء تلذ القارئ معرفتها فان تحليل البول بالطرق العلمية لم يبدأ الاَّ في اواخر القرن التاسع عشر والطب قديم كما نعلم فقد اتى على الانسان ٢٣٠٠ سنة كان البول فيها في اوج عظمتهِ يُعرف منهُ ما شاء التصور والخيال او العقيدة والايمان ولم يكن للطبيب من وسيلة تسهل لهُ معرفة العلة وتساعدهُ على تشخيص الداء لان الطرق المستعملة اليوم للفحص كالتسمع والقرع وقياس الحرارة وغير ذلك كانت مجهولة ولم يكن من اثر لعلم التشريح وعلم وظائف الاعضاء فلم يبقَ الاَّ هذا السائل العجيب ليهتدي بهِ الطبيب

وكم محترف لهذه الصناعة بلغ من الشهرة في ذلك العصر شأواً بعيداً فكان محجة القصاد يؤمونهُ من كل صقع وتذر او بالاحرى يبعثون اليهِ بقوارير البول المختلفة مما تضيق بهِ داره ويفسد الهواء بخارهُ وهو يحاول ان يقرأ فيها اسرار الداء ويستكشف خبايا الدواء من غير ان يتسنى لهُ فحص المريض او رؤيتهُ على الاقل. واذا لم تكن نتيجة هذه المعالجة قتل المريض فلان العقاقير لم تكن سامة على الغالب وكانت الطبيعة وحدها تتكفل بالشفاء

ولا بدع ازاء هذا الدور الذي مثَّلهُ البول في الطب ان تشتغل بهِ قرائح ذلك الجيل من شعراء ومصورين فانك لا تكاد تجد صورة طبيب لذلك العهد غير حامل بيده اناء من البول ينظر اليهِ نظرة الباحث المستفهم . وهناك غير واحد من الحفارين مثَّل الطبيب وقارورتهُ على هام جدران الكنائس . وكثير من الرهبان في وحدة الاديرة اطلقوا العنة اقلامهم في وصف الطبيب وما حمل . وكم اخرجت مدرسة « سالرن » ممن نظم قلائد الاشعار في هذا الموضوع الغريب عن كل شعر . اما اليوم فقد تغيرت الحالة كل التغير وبعد ان كان الطبيب يستند الى

ظواهر البول ويبني تشخيصهُ على اختلاف اللون والرائحة والكثافة ويلتجىء الى وسائل غريبة في بابها كمحاولتهِ معرفة السكر في البول من عدد النمل الذي يتزاحم عليهِ فتح لهُ العلم الحديث باباً واسعاً للبحث فاهتدى بالكيمياء والمكرسكوب الى تحليل البول وكشف العناصر والاملاح التي يتركب منها على نسب مختلفة ومعرفة الاسباب والاحوال التي تؤثر فيهِ كماً وكيفاً

وقد تعددت المؤلفات الحديثة في هذا الشأن واقاض العلماء في ذكر التأثير الذي تحدثهُ الامراض في البول على الاطلاق ولكن البحث في تأثير امراض البلاد الحارة خصوصاً لم يزل ناقصاً. ولولا رسائل ومقالات مبعثرة في الجرائد والمجلات الطبية لقلنا ان الموضوع ابن اليوم. على انهُ يحق لنا ان نقول ان كتاب تغيرات البول في امراض البلاد الحارة هو الاول من نوعهِ فقد قيَّد المؤلف اوابدهُ وجمع شتاتهُ واضاف اليهِ معلوماتهِ الخاصة وخبرة عشرين سنة قضاها في هذا القطر فجاء وافياً يخفف عن القارىء عناء البحث الطويل

ولا يتوهم القارىء عامرٌ اننا بلغنا الغاية من فحص البول وان هذا العلم قد اعطانا كل ما في امكانهِ وانهُ بواسطتهِ فتحت علينا مغالق الطب وكشفت اسرار الامراض. كلا فاننا لم نزل في طفولتهِ ولكن من يقابل بين الزمن الماضي والخمسين سنة الاخيرة ويرى كيف درج هذا الفن من عشهِ لا يقطع الرجاء ان يرى يوماً افقاً جديداً واسعاً لم نكد نحلم بهِ. على كل حال فان الفائدة التي نجنيها اليوم من وراء فحص البول هي عظيمة في بعض الاحوال وعلى الطبيب ان يُعنى بهِ كلما اتيح لهُ ذلك فان الاسباب الثلاثة التي يأخذ بها الطبيب لتشخيص الداء وهي المشاهدة الاكلينيكية وفحص الدم وفحص البول تتماسك على وجه تبطل معهُ الفائدة اذا اهمل احدها. وكما انهُ في بعض الاحوال يكون فحص الدم في المقام الاول من الاهمية ففي احوال اخرى تنتقل هذه الاهمية الى البول. خذ مثلاً على ذلك خراج الكبد فقد جاء زمن حسب فيهِ فحص الدم من لوازم التشخيص لانهم عدّوا تكاثر الكريات البيضاء نتيجة لازمة للداء. ثم عرف بالبحث ما في الامر من المبالغة وقد قدم مؤلف هذا الكتاب تقريراً الى جمعية باريس البيولوجية اظهر فيهِ ان تكاثر كريات الدم البيضاء ليس امراً ثابتاً في خراج الكبد ولا يمكن ان يتخذ وسيلة للتشخيص لان هذه الكريات قد تبقى احياناً على حالها واحياناً تنقص

نتصانًا محسوساً مما يضيع بهِ الطبيب بدلاً من ان يهتدي. لا تقعد بذلك ان فحص البول يسد النقص ويميط اللثام عن خافي هذه العلة فالتعميم تسرع لا مسوغ لهُ وتغيرات البول في امراض الكبد تتشابه الى درجة لا يمكن معها التسرع في الحكم دون الوقوع في خطأ. مع ذلك وجد الباحثون ان للبول تغيرات خصوصية في تقيح الكبد لا تخلو من العبرة منها نقص في افراز البولينا (urée) في حين ان المألوف زيادة الافراز لا نقصهُ نظراً لارتفاع الحرارة والافراط في تغذية المريض. وقد برهن مؤلف هذا الكتاب ان النقص في افراز البولين لا يأتي في اول الداء بل عند ما يصيب التقيح كل نسيج الكبد. ولا يخفى فائدة هذه المشاهدة لانها تشجع الطبيب المعالج على اجراء العملية الجراحية حينما يكون على ثقة ان العلة لم تزل في بدايتها ونجاح العملية اكيد. ومن هنا ترى ان فحص البول لا تنحصر فائدتهُ في التشخيص بل تتناول الانذار فيستدل منهُ على سير العلة ومصيرها

وفي الكتاب المذكور امثلة عديدة على ما بيَّنا منها الحمى الصفراوية النزفية التي انتشر وباؤها في الاسكندرية سنة ١٩٠٢ فقد قدم المؤلف عنها تقريراً الى المؤتمر الطبي المصري ذكر فيهِ بين تغيرات البول نقص البولينا حتى انهُ في بعض الاحيان كانت كميتهُ لا تزيد عن ٣٨ سنتجراماً ثم تبلغ عندما يتجه المريض نحو الشفاء ٧٢ جراماً فتأمل. وزد على ذلك ان مكروب الداء موجود في البول ويسهل الوصول اليهِ بالطرق العلمية

ومنها البلهارسيا المعروفة فان بيوضها ترى بكثرة في بول المصابين بهذا الداء. كذلك يمكن الباحث ان يرى في البول جراثيم الفلاريوز ومكروب الحمى المالطية واحياناً باشلس البرص الى آخره.

ويطول بنا الشرح اذا اردنا ان نبحث عن كل ما يصيب البول من التغيرات في امراض البلاد الحارة فننظر الى ترجمة الكتاب ونحن لم نقصد إلاَّ التنويه بهِ. ومع شكري للمؤلف على ولوجهِ هذا الموضوع وهو في مكان بعيد عن الحركة العلمية يتعذر فيهِ المطالعة والرجوع الى المصادر التي لا غنى عنها لمن يحاول تأليفاً مثل هذا فاني ارجو منهُ ان لا يقف عند هذا الحد بل يتوسع فيما بدأ بهِ ويملأ في الطبعة التالية الفراغ الذي لا مناص من وقوعهِ في اول كل عمل وذلك خدمة للمرضى وللاطباء

الاسكندرية الدكتور فياض